طي المراحل لابن مسلم الداني دراسة أدبية تاريخية

د. مصطفى عبد الله عـــلاق الكيكط ـ قسم اللغة العربية ـ
كلية الآداب والعلوم بدر ـ جامعة الزنتان
EMAIL: mostafa_alag@yahoo.com
.MOSTAFA.ALKIKAT@UOZ.EDU

Research Title: Tayy al-Marahil by Ibn Muslim al-Dani: A Literary and Historical Study

Dr. Mostafa Abdollah Alag Alkikat
Year 1447 AH - 2025 AD
State of Libya
Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Zintan
Faculty of Arts and Sciences, Badr University
Department of Arabic Language

Research summary
This research examines a distinguished genre within Arabic literature—travel writing—through the lens of Tayy al-Marahil, authored by the Andalusian writer Ibn Muslim al-Dani. The study addresses a notable scholarly gap regarding the marginalization and insufficient recognition of this author's contributions to the field. In response, the research seeks to introduce Ibn Muslim al-Dani and his literary output in a manner comparable to other renowned literary travelers of his time.
The significance of this study lies in its exploration of the stylistic characteristics of Andalusian writers and the cultural and intellectual environment in which they worked. It sheds light on the value Andalusian rulers placed on literature and knowledge, as evidenced by their support and encouragement of scholars and writers. Additionally, the work provides insights into the prevailing customs and social dynamics of Andalusian society, as documented in travel records and diaries.
The research adopts an inductive historical methodology, involving the extrapolation of texts, the tracking of historical events, and the formulation of conclusions grounded in evidence and factual data.

Among the key findings is the identification of Ibn Muslim's journey as a form of internal diplomatic mission. Evidence suggests he acted as an envoy on behalf of the ruler of Denia, ʿAli ibn Mujāhid, to various Taifa princes, in an attempt to rally support in anticipation of a military threat from al-Muqtadir ibn Hūd. Through his travels, Ibn Muslim observed and documented numerous facets of Andalusian life, particularly the luxurious lifestyle he encountered in Almería. Furthermore, his literary talent is evident in his correspondences and narratives, especially in his poignant reflections on the decline of Cordoba, where he vividly portrayed the remnants of its past glory and the legacy of its an

الملخـــــــص:

هذا البحث مخصوص بدراسة لــون أدبي، ونتاج أحد كتاب القطر الأندلسي ممن كتبوا في أدب الرحلة، وأسهموا في النهوض بهذا اللون من الكتابة، وكانت هذه الدراسة استجابة لجملة من الأسباب والمشكلات لعل أبــرزها عدم إنصاف هذه الشخصية وإهمال ذكرها عند دارسي هذا اللون من الكتابة، فأدرت التعريف به ونتاجه أسوة بغيره من الكتاب والرحالة الأدباء، فكان هذا البحث مناسبة لدراسة شخصية أدبية ونتاجها في هذا الباب ، وأما عن أهمية البحث العلمية فتكمن في الوقوف على الأساليب الكتابية عند أدباء الأندلس في هذه الحقبة والتعرف على مميزاتها، ثم إظهار المكانة التي كان يوليها أمراء تلك البلاد للعلوم والآدب وإكرام أهلها وتشجيعهم كذلك يمكن من خلال هذه الدراسة التعرف إلى الأنماط الحياتية السائدة في أوساط المجتمع الأندلسي آنذاك؛ بما يسجله الرحالة ويدونه من مذكرات تكون شاهدة على مجريات الحياة وألوانها ، وأما عن المنهج المتبع في هذا البحث، فهو المنهج التاريخي الاستقرائي؛ وذلك لما يحتاجه الدارس من تتبع واستقراء للنصوص، وتتبع للأحداث، ومن ثم الاستنتاج والترجيح تبعا للوقائع والمعطيات. وقد أسفرت هذه الدراسة عن جملة من النتائج لعل أبرزها يكمن في كون رحلة ابن مسلم تندرج تحت باب السفارة الداخلية، لما وجد من أدلة كونه كان سفيرا لصاحب دانية علي بن مجاهد إلى أمراء الطوائف يطلب نجدتهم، لما أحس الأخير بنية المقتدر بن هود في الاستيلاء على ملكه وتقويض دولته. وأن ابن مسلم استطاع – من خلال رحله – رصد عديد من الأنماط الحياتية والمظاهر المجتمعية لطائفة من أبناء المجتمع الأندلسي في الحقبة المؤرخة، كما هو الحال عند تصويره لمظهر من حياة الترف والركون إلى الدنيا لاسيما زمن إقامته بحاضرة المرية. كذلك يمكن القول إن ابن مسلم قد أبدع في جل ما دونه من رسائل وأغراض، لاسيما عند ما طرق باب رثاء

حاضرة قرطبة، ووقف على أطلالها، وقص مشاهد اندثار مجد تلك القرون البائدة والأسلاف الغابرة.

الكلمات المفتاحيـــة: أدب الرحلة – ابن مسلم – طي المراحل – الحواضر الأندلسية – أمراء الأندلس – اللون الكتابي – أسلوب الكاتب – الأديب – أغراض ابن مسلم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي محمد النبي الأمي الأمين، أفصح الناس لسانا وأعلاهم، خير من نطق بالضاد فأوجز وأفهم المراد، أوتي جوامع الكلم ومكارم الأخلاق، فاللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الأدب الأندلسي ميدان فسيح، ومضمار واسع، تعددت فنونه، وتنوعت روائعه، وانتشرت فرائده بما أنتجته قرائح أدباء ذلك القطر وما خطته أنامل مؤرخيه وكتاب دواوينه. فكان من بين تلك الفنون الأدبية لون طريف ماتع ازدانت به دوحت الأدب الأندلسي بما أهداه إليها كوكبة من أدبائها من تحف رائعة في باب أدب الرحلة. ولعله من المألوف عند ذكر هذا اللون الكتابي - لأول وهلة- يأتي في المقدمة جملة من رواد هذا اللون البارزين ممن اشتهر بالرحلات حتى غدت علما لأصحابها ، كما هو الحال، عن رحلة ابن جبير614هـ (1)، ورحلة ابن سعيد المغربي 685هـ(2)، ورحلة ابن بطوطة 779هـ (3)، وغير هؤلاء كثير ممن جمعت لهم المصادر وكتب التاريخ شيئا من إرثهم الأدبي في باب أدب الرحلة، غير أنه ليس من الإنصاف أن يهمل أديب بارع في هذا الباب ويعفى ذكره، مع أنه سابق لغيره من الأدباء زمنًا ونتاجا؛ حتى إن ابن بسام الشنتريني (4)عندما ترجم له وصفه بقوله : « آية الزمن، ونهاية الفطنة واللسن، نفث بالسحر، واغترف من البحر، ونظم الدرر بالألاء من الدر»(5). ولعل السبب في ذلك عدم وجود ترجمة وافية له في كتب التراجم والتأريخ ، ولكن هذا لا يقدح في كونه أديبا لامعا وكاتبا بارعا ذاك هو الكاتب محمد بن مسلم الداني.

وعليه فإن هذا البحث جاء استجابة لما أشرت إليه آنفا، كون هذا العلم لم يحظ – كغيره من أعلام هذا الفن – بدراسة تعريفية به ونتاجه فأردت الكتابة حوله وإنصافه ما أمكن إلى ذلك سبيلا.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في جملة من الأمور منها:

- التعريف بعلم من أعلام أدب الرحلة المغمورين أسوة بغيره من الأدباء ورفدة للمكتبة الأندلسية، وإحياء للتراث العربي في ذلك القطر .
- الوقوف على الأساليب الكتابية عند أدباء الأندلس في هذه الحقبة والتعرف على مميزاتها.
- إظهار المكانة التي كان يوليها أمراء تلك البلاد لهؤلاء النخبة من الأدباء ومدى إسهامهم في تشجيع العلم وأهله.
- التعرف إلى الأنماط الحياتية السائدة في أوساط المجتمع الأندلسي آنذاك ؛ بما يسجله الرحالة من مواقف، وصور لحياة الناس فيما بينهم.

الدراسات السابقة:

في حدود علمي وما وسعه بحثي واطلاعي لم أقف على دراسة مستقلة اختصت بهذا الأديب الرحالة، إلا ما وجد من إشارات عامة عند كل من الدكتور إحسان عباس في كتابه تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، وكذلك الدكتور شوقي ضيف في كتابه تاريخ الأدب العربي، وذلك في معرض حديثهما عن أغراض أدب الرسائل الأندلسية بشكل عام.

المنهج المتبع في هذا البحث:

هذا اللون من الكتابة يصلح معه المنهج التأريخي الاستقرائي؛ وذلك لما يحتاجه الدارس من تتبع واستقراء للنصوص، وتتبع للأحداث، ومن ثم الاستنتاج والترجيح تبعا للوقائع والمعطيات.

خطة البحث:

واقتضت طبيعة هذا البحث تقسيمه على مقدمة ثم تمهيد، وثلاثة مباحث، كل مبحث منها ينتدرج تحته مطالب، ثم خاتمة ضمت جملة من النتائج والتوصيات، ثم ألحقته بثبت لمصادر البحث وهوامشه واخترت له عنوانا هو (طي المراحل لابن مسلم الداني دراسة أدبية تأرخية) فالمبحث الأول: ابن مسلم وطي المراحل، ترجمته ومدة رحلته والحواضر التي زارها، والمبحث الثاني المبحث الثاني: أغراض ابن مسلم في رسائله والقيمة الفنية والتأريخية لطي المراحل، والمبحث الثالث: الصنعة الفنية والأسلوبية لطي المراحل

تمهيد:

اشتهر المجتمع العربي منذ القدم ، بحياة الحل والترحال ؛ لما فرضته ظروف الحياة و البيئة على أفراد هذا المجتمع ؛ فهم كثيرو التنقل سعيا وراء المعاش ، وتتبعا لموارد

الماء ومنابت الكلأ ، أو هربا من الصراعات والهجمات التي كانت تشنها القبائل المنتشرة في الصحارى ضد بعضها البعض حينا آخر، وربما كان المغزى من ذلك تكسبيًا؛ لما أثر عن كثير من شعراء الجاهلية أنهم قصدوا بلاطات الملوك والأمراء طمعا في سد رمق أحدهم ، أو الشفاعة وطلب الحماية والأمان ، وربما كان للسفارات، والتبادل التجاري وغيره عظيم الأثر في هذا النوع الطريف من الكتابة .

المبحث الأول ـ ابن مسلم وطي المراحل، ترجمته ومدة رحلته والحواضر التي زارها:

المطلب الأول ـ ترجمته:

هو الأديب الوزير الكاتب أبو عبدالله محمد بن مسلم (6) الداني(7)، لم تزد المصادر التي ترجمت له غير ذلك من حيث اسمه ، ونسبه ؛ ذكر ذلك ابن بسام عند ما ترجم له ، كذلك ترجم له ابن سعيد المغربي ، نقلا عن ابن بسام ، وزاد عن ترجمة ابن بسام نسبته إلى دانية ، ولعل الاقتضاب الحاصل في ترجمته راجع إلى تدهور الأحوال السياسية في تلك الحقبة ، واندثار كثير من المصادر التي يعول عليها في باب الترجمة والتأريخ ، كما هو الحال مع تأريخ أبي حيان الموسوم بالمتين ، هذا الديوان كان مرجعا أساسا لابن بسام في تراجمه وأخباره ، غير أنه ضاع كغيره ، ولم يبق منه إلا ما نقله ابن بسام في ذخيرته ، وقد أشار إلى ذلك مرارا في ذخيرته ، وإلا فإنه من الغريب أن يهمل ذكر كاتب يعد في الطبقة الأولى لكتاب الأندلس ؛ لما وجد في نتاجه من رسائل خاطب بها أشهر كتاب الأندلس وشعرائها أمثال ابن زيدون وابن عبد البر(8)

المطلب الثاني ـ طي المراحل سبب تسميتها والمدة التي قضاها، والدافع لهذه الرحلة:

دأب رواد هذا اللون من الأدب على اختيار اسم لرحلاتهم، وهذا الاسم يكون مشتقا أو دالا - في الغالب -على الوجهة التي يريدها الرحالة، أو الهدف المراد منها، وربما أخذت اسم الرحالة نفسه كما هو الحال عند ابن بطوطة وغيره. غير أن ابن مسلم خرج عن هذا المعهود إلى لون مغاير من حيث التسمية، فاشتق لرحلته هذه اسما من واقع الألم والمعاناة وركوب الأخطار، فوسمها بـ (طي المراحل) (9)؛ لما كان منه من جوب الأقطار، وقطع المسافات، وهذه التسمية ذكرها ابن بسام، عند ترجمته له، ويبدو أن النص الذي ورد فيه ذكر التسمية من جملة ما اختصره ابن بسام؛ لما كان من ديدنه ومنهجه في إيراد نتاج تراجمه وتدويناته.

المدة التي قضاها ابن مسلم في رحلته والحواضر التي زارها: لم يصرح ابن مسلم عن المدة التي قضاها في رحلته هذه، ولكن باستقراء نصوص رسائله تبين – من خلال إشارة ذكرها في إحدى رسائله التي خاطب بها أغلب (10) صاحب ميورقة(11)- أنه أمضى ما يقرب من تسع وعشرين سنة يجوب البلاد ويقرع أبواب المدن والحواضر الأندلسية وفي ذلك يقول : " ولي ... ما يزيد على عشر حجج نصفها، وعلى سبعة أعوام ضعفها "(12) .

من خلال تتبع النصوص التي أوردها ابن بسام لرسائل الأديب ابن مسلم يمكن القول أنه ابتدأ رحلته من مسقط رأسه دانية ، وأميرها آنذاك إقبال الدولة(13) الذي أطاح بحكمه المقتدر ابن هود سنة ثمان وستين وأربعمائة(14) ولم يذكر سنة خروجه منها ، وإنما اكتفى بكونه قاصدا أريولة (15) وفي ذلك يقول : " فأخذنا يمنة الطريق، وتيممنا أريولة على الفج العميق"(16) ، وهذه المدينة لم يتخذ منها دار مقام على ما يبدو من أسلوبه - وهو يسرد أحداث رحلته والمدن التي مر بها – ؛ لأنه ذكر مدينة أخرى وقد كنى عنها ولم يسمها ويبدو أنه كان على صلة بصاحب هذه المدينة ؛ لما ذكره من حاله وقت سماعه خبر وصول ابن مسلم ، وفي ذلك يقول : " فجئنا فلانة، وقد سد بابها، ونام بوابها، والسيل قد طمى، يحمل غثاء أحوى، فلم تشك القلوب أن نفوسنا ذائقة الموت، حتى إذا بلغت النفوس التراق، والتفت الساق بالساق، وقيل من راق وأشعر صاحب الحصن بمكاني، وقص عليه شاني، فأمر بفتح باب المدينة، وآواني إلى دار حصينة، وتقدم بالضرام فأجج، وبالطعام فَرُوِّجَ"(17) ، فكان بقاؤه فيها بقاء مدة الضيف ؛ فهو لم يلبث أن حث الخطا نحو المرية (18)، وهي يوم ذاك تحت حكم المعتصم بالله ابن صمادح(19)، وكانت تربطه به صلات قديمة على ما يبدو من كلام المعتصم ، فاتخذ منها مستقرا مدة من الزمن ينعم بخيراتها ، ويرتع في منتزهاتها ، وفي ذلك يقول : " حتى جئت المرية، وكان عهدي بها عهد طيف الكرى، بما بين العقيق إلى الحمى ..... ولما لقيت المعتصم بالله - فتح الله له في البلاد، كما شرح بوده قلوب العباد - قال: مرحبا بالولي الحميم، والصديق الحديث القديم "(20) ، وبعد هذه المدة التي قضاها ابن مسلم بمدينة المرية - وكانت شاهدا على حياة الترف والدعة - شدَّ الرحيل نحو غرناطة لَمَّا ذكر أميرها بلقبه وكنيته فقال : " ثم خرجت بعد إلى المظفر الرئيس أبي مناد(21) ، فكأن أيام طريقي إليه، كانت كفارة لما أصررت في المرية عليه ، وتمحيصا لذنب شرب المزر، وتضييع حق الخمر"(22) ومن المرجح أن وفوده عليه كان في المدة ما بين تسع وعشرين وأربعمائة و تسع وأربعين و أربعمائة وهي مدة حكم المظفر هذا(23) ، ثم نجده

قد رحل عن ألش(24) ولم يذكر شيئا عن مدة إقامته فيها غير ما ألمح إليه من تلك المشقة التي لقيها عند مروره بها(25) ، وكان آخر محطة في رحلة ابن مسلم تتمثل في حاضرة إشبيلية(26) التي كانت تحت حكم المعتضد بن عباد(27) ، وكانت رحلته إليها مرورا بقرطبة التي وصف حالها يومئذ وما لحقها من الخراب والدمار جراء الفتن البربرية التي عصفت بالبلاد ، فقال : " ثم توجهت تلقاء مدين الأصعد، وموطن السؤدد، حضرة المعتضد بالله، وكان طريقي إليها على قرطبة، وكثيرا ما كنت اقترح بإتيانها، وإن كانت على هرم، وأتمنى وقفة فيها ولو على قدم، وأرغب زيارتها ولو إلماما، وأود رؤيتها ولو مناما، لألمح دار الخلافة، وأرى بيت الرياسة "(28) فهذا تمام ما أمكن الوقوف عليه من الحواضر التي وطأتها قدما الرحالة ابن مسلم ، بما وجد مدونا في هذه الرسائل والمختارات التي أوردها ابن بسام ، لنصل الحديث عن سبب هذه الرحلة والغرض منه.

غرض ابن مسلم من رحلته والدافع إليها: تعددت الدوافع واختلفت الأسباب التي كانت وراء رحلات كثير من رواد هذا اللون التأليفي، فتارة تكون شخصية تمثلها رغبة الأديب أو الرحالة في خوض تجربة قد تكون فريدة من نوعها حبا في المغامرة والاستكشاف، أو التدوين والاطلاع على ثقافات أمم ومجتمعات، أو لأجل التجارة والكسب، وقد يكون الدافع من باب التكليف والإرسال في مهمات من قبل الأمراء والحكام، كما هو الحال في السفارات الداخلية والخارجية منها . فكانت رحلة ابن مسلم تمثل لونا من السفارة الداخلية إبان حكم ملوك الطوائف تلبية لأمر علي بن مجاهد لما ساءت العلاقة بينه و ابن هود ، فاضطر ابن مجاهد إلى طلب العون من بعض حلفائه وأنصاره من ملوك الطوائف وقتئذ ، فكان ابن مسلم سفيره إلى هؤلاء النفر من الأمراء والزعماء ، فيقول في موضع منها – وقد سأله ابن صمادح البقاء عنده فيما يبدو – " فقلت: أيد الله مولاي، ما أجاءني حب الراحة، ولا طلب الإراحة، وإنما أنا في حكم شرع، وأداء فرض "(29) ، وعلى هذا المنوال نجد إشارت كثيرة مبثوثة أثناء رسائله تدل على غرضها ، وفي موضع من هذه الرسائل يصرح بذكر غرض هذه الرحلة وذلك عند وصوله حاضرة إشبيلية ، ولقائه ملكها آنذاك المعتضد بن عباد وفي ذلك يقول : " قلت: أيدك الله، إن من أرسل رسولا في مهم تطلع، ومن رجا صديقا لدفع ملم توقع، لا سيما إن رجاه شفاء من الخطب، واستهداء هناء لموضع النقب، فقد تعلم كيف نظر السقيم إلى العائد، وناهيك إن كان طبيبا، والتفات المقيم إلى الوارد، ويكفيك إن أورد محبوبا، وإن رئيسي - معظمك - أرسلني إليك وانتظر، وأوفدني عليك ثم استمطر، وقد رأى أن إسعادك مراده، وإنجادك مراده "(39).

المبحث الثاني ـ أغراض ابن مسلم في رسائله والقيمة الفنية والتأريخية لطي المراحل:

المطلب الأول ـ أغراض طي المراحل:

تنوعت أغراض ابن مسلم في رسائله، وتعددت موضوعاتها كالوصف ، والقصص، والمدح والثناء، ورثاء المدن الممالك الزائلة .

الوصف: يعد غرض الوصف أس الباب في ما ذكر ؛ ذلك أن الوصف باب أصيل في الأدب العربي بشقيه الشعر والنثر، فابن رشيق عندما يتحدث عن أبواب الشعر يقول " الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه "(31) ، ولم تخرج الرسالة الأدبية عن هذا الوصف ؛ ذلك أن الكاتب إذا أراد تدبيج رسالة ما ، حول موضوع ما ، فإنه سيسلك سبيل الوصف حتما ، لاسيما إذا كان الأديب يقص ويسرد أحداث رحلة ، أو سفر كما هو الحال عند ابن مسلم ، فإنه لا مناص أن يصور ويصف ما يمر به من مشاهد و أحداث منذ أن يضع رجله في غرز راحاته تأهبا لرحلته ، ثم يسترسل في سرد فصولها ومشاهدها ، وأول ما يطالعنا من أحداث رحلة ابن مسلم الداني ذكر مشاق سفره وما كابده من أهوال وما قطعه من مسافات كل ذلك يسرده علينا ابن مسلم في رحلته هذه فيقول : " ولي منذ أجول البلاد، وأجوب الصخر بالواد ..... لم ألق إلا يوما يجعل الولدان شيبا، والجبال كثيبا مهيلا، وإن شئت أن أقصص عليك من نبأي قصصا، وأضرب لك من بعض أسفاري مثلا، ففرغ لي ذهنك، وأصغ إلي أذنك، حتى تسمع من أحوال صديقك ما يفلح ويثلج، ويغم ثم يبهج، فقد أودعت كتابي هذا نبذا مما لقيته في سفري، كان من خبري "(32)، و يعرج - في بعض المشاهد من رحلته - على ذكر تلك الحروب والصراعات زمن الفتن مقتبسا شيئا من معاني كتاب الله فيقول : " فإذا بصماء منه قد انكدرت فأمطرت علينا حجارة من سجيل، كادت تجعلنا كعصف مأكول، فقوم شدخت رؤوسهم، وقوم ضمت عليهم رموسهم، كأنهم كانوا بقية من أصحاب الفيل، أو نفاية من قوم لوط"(33) ، وفي فصل منها يستعيض عن هذه الحال وما ذكره من سوء المآل ، فيصف جانبا من حياة الترف واللهو و الانهماك في الملذات والمبالغة في ذلك إلى حد الإسراف ، فيقول : " وأخذنا مراتب القعود إلى الطعام، يطاف علينا بصحاف من فضة وذهب، وجفان كالجواب أترعت من كل أرب، فلما أتينا على الري قمنا إلى الوضوء، فجيء، بطساس من التبر، وأباريق رصعت بالدر، ووضئنا

بماء قوامه بلور "(34) ، ولعل الجانب الذي أبدع فيه أدباء الأندلس شعرا ونثرا في باب الوصف - وانمازوا به عن غيرهم من الأدباء - وصف الطبيعة ؛ لاسيما الطبيعة الأندلسية لما حباها الله به من جمال أخاذ ومناظر بديعة، فتلك الجنات الوارفة الظلال ، المنسابة الأنهار، وهذه الحدائق الغناءة بأطيارها ، المتنوعة بأزهارها و ثمارها ، كل ذلك عبر عنه ابن مسلم الداني في لوحة بديعة رقم برودها ، ورسم حدودها ، فقال : " حتى وصلنا إلى دار منفرجة الأقطار، مستوفزة الأنوار، متدفقة الأنهار ، هواؤها جلاء للغم، وزيادة في العمر، ضياؤها شفاء للكظم، وانشراح للصدر؛ وكأن مياهها تنبعث من بنان سيدها، فصارت عينا سلسبيلا، وكان مزاجها زنجبيلا، أو كأنما مست عينا حيوانا، فأنبتت من الزبرجد ريحانا، ومن الزمرد شجرا فينانا، وجعلت من التاريخ (35) عقيانا، ومن زهر الآس لؤلؤا ومرجانا "(36) ، ومن الشواهد على وصف الطبيعة هذا المشهد الذي يصور فيه ابن مسلم حاله ومن معه أثناء رحلته هذه بأسلوب طريف وتشبيهات رائقة ، فيذكر صفاء اليوم أول النهار والشمس ساطع ضوؤها وهم في أحسن حال من السرور والمسير، ومن دون سابق إنذار يجد ابن مسلم نفسه تحت شؤبوب من الماء المنهمر قد أظلمت السماء بسحابها ، فيقول " وإني فصلت من ألش والشمس مجلوة الناظر، والجو كمقلة الساهر ....حتى التقت أجفان الغمام، ثم هلت إليه هل الدموع السجام، وصرنا بين صعيد زلق، وسماء طبق، ينثر قطره نبالا ويمطر وبله وبالا، وما زال الرعد يقصف، والمزن يكف، حتى خلت البحر صار سقفا، والسماء قد أسقطت علي كسفا، واستنجز القضاء، والتقى الماء والماء، فكلما أوينا إلى جدار كاد ينقض، أو لجأنا إلى قرار خسفت به الأرض ..... ثم إننا أخذنا في الهرب، وأخذت السيول والأمطار في الطلب، فتارة نقع من الوعر في شرك، وأخرى نهفو من الوحل في درك "(37).

المـــدح : المدح باب أصيل من أبواب الأدب العربي ؛ فهو ملازم للقصيدة العربية والرسالة الأدبية لا يكاد يخلو منه زمان ؛ ذلك أن النفوس جبلت على حب المديح والثناء إلا من عصمه الله من ذلك ، فكانت المدائح أداة الشاعر والكاتب يستمطر بها ما عند الممدوح ويهز بها أعطاف الملوك ، فتنهال الأعطيات وتتحقق المطلوبات بحسب حال المادح من الممدوح ، ولابن مسلم قطعة من هذا اللون يمدح أحد الأمراء يدعى سيف الدولة ، وذلك في معرض حديثه عما لقيه أثناء رحلته من صنوف المتاعب وما عاينه من أهوال حتى حطت ركابه عند ممدوحه الذي برد عنه لأواء السفر بما وجد عنده من الكرم والسخاء وفي ذلك يقول : "وسرنا بين جبال وحشة، ومياه دهشة، فصاردتنا من ريح عاد، ذات صر وأبراد، أضرمت نار البرحاء، وكظمت أنفاس الصعداء، ومن أخذ

بكظمه كيف يرجو الحياة، ومن أطبق بغمه أين يجد النجاة -! وما شك غمام الثلج المنثور، أني من أصحاب القبور، فجعل يهدي إلي حنوطا وذرورا، ويندف علي قطنا ينثر كافورا، فلما تمت الأكفان، وصح الاندفان، طلعت إلي غرة الحاجب سيف الدولة أبي الفتوح، فقمت وقد انجلت عني المحن، وانتفضت فطار القبر والكفن ..... جواد يندى في كفه الجماد، وتقدح بنبله الزناد "(38) ، وله أخرى في الملك المعتضد، وقد خلع عليه من الأوصاف ما يشفي به غلة نفسه، و يستميح به ما عنده ، فقال : " وإني رأيت ملكا لا يصعد الطرف إليه إجلالا، ولا تطيق النفوس عنه انفصالا، قد جمع مهابة العدل، إلى ودادة الفضل، وجلالة المنصب، إلى لطافة الأدب .... والمعتضد بالله لا يدع في ذلك تأنيسي بكل تحفة يهديها مع الأحيان، وطرفة يوليها مع كل دقيقة من الزمان، ولقد تاحفني يوما عندما طرأت الأشابيل في النهر، وانسربت من البحر، بعدة أسماك منثنية الذوائب متمكنة الحياة، لدنة النقل والحركات "(39) ولما كانت النفس تأنس بالمديح وتطرب له ، فقد يتخذ منه الأديب جسرا يجوز من خلاله إلى باب آخر كالعزاء مثلا ، ومن هذا اللون نجد رسالة عزاء مشوبة بالمدح دبجها ابن مسلم عند وفاة ابن عامر معزيا بها ابن صمادح ومادحا له في الآن نفسه قال في بعضها :" يا مولاي وسيدي المنعم، ومن لا زالت وجوه الكوارث عنه مصدودة، وأيدي الحوادث دونه مسدودة، بقاء المرء - أيدك الله - لفناء أسلافه ونماء أخلافه، كرامة للأدب، وسعادة للعقب، فما للإنسان يكون هلوعا، إذا مسه الخير منوعا، واذا مسه الشر جزوعا وإن كان المنصور مات فقيدا، فقد عاش حميدا، أو أمسى ملحودا، فطالما أصبح معمودا، لبث في أهله سنينا، وأقام في سلطانه مكينا، بين شفاء نفس، واستيفاء أنس وتوطيد دولة، وإقامة سنة، وحماية أمة، حتى كمل جده، وأتاه بالموت وعده، فذوى دوحه وقد أثمر غرسك، وأفل بدره وقد بزغت شمسك "(40).

وقد يكون المدح لونا من تبادل المشاعر والصلات كما هو الحال مع رسائل النظراء والأنداد من أرباب القرطاس والقلم وإظهار ما بينهم من أواصر المودة والإخاء و الإشادة بما يكون عليه أحدهم من الريادة والتقدم في فن الكتابة والعلم ، أو لأجل الإعلام بحال الكاتب وطمأنة صاحبه ، وعلى هذا اللون نجد ابن مسلم يخاطب علما من أعلام الكتابة والترسل ، ذاك هو ابن عبد البر، فيقول مخبرا عن حاله لما فرغ من تلك المهمة التي كلفها والوجهة التي قصدها " فلما كمل المراد، ووقفت حيث وقف الاجتهاد، كتبت إلى ذي الوزارتين الكاتب أبي محمد بن عبد البر أستريح إليه بأنبائي، وأصف ارتجاج الجو من برحائي، رقعة أقول فيها: سيدي وسندي، وسهمة يدي، ونعمة أبدي، ومن أبقاه الله

معافى من النوب، موقى من وعثاء السفر وسوء المنقلب، كم لله من منن جزيلة، وأياد جميلة، وعوارف وكيدة، وعواطف حميدة، وإن أولى نعمة بالشكر، وأحجى قسمة بالذكر، نعمة صرفت بأساء، ومسرة دفعت غماء"(41)، وإن كانت هذه الرسالة إلى باب الرسائل الإخوانية أقرب ، ولكنها تندرج تحت باب المديح الذي تمت الإشارة إليه سلفا

رثاء المدن والممالك الزائلة : عند الحديث عن هذا اللون الكتابي يمكن القول إن أدباء الأندلس حازوا به قصب السبق ، بما أنتجوه من أدب رفيع بنوعيه المنظوم والمنثور ، ولعل ذلك راجع إلى صدق العاطفة ، وحقيقة التجربة لما منيت بها بلاد الأندلس من فتن ، وما تعاقب عليها من محن أزالت حكم العرب ، بل الوجود الإسلامي جملة بعد ما يقرب من ثمانية قرون كانت فيها تلك البلاد مركزا للحضارة العربية ومنبعا للعلوم الشرعية ، فغدت مدنها وحواضرها أثرا بعد عين ، قد تلقفتها الفتن وأناخت بأرضها المحن ، جراء التباغض الحاصل بين أمرائها ، والتدابر بين أبنائها حتى دب فيهم داء الأمم ، وأصابهم الوهن ، فكان سببا في طمع عدوهم وإنهاء حكم المسلمين وانتزاع أرضهم واستباحة حرماتهم ، هذه الحال كلها أيقظت القلوب وهزت النفوس وحركت القرائح ، فأنتجت أدبا صادقا، فكان ابن مسلم ممن كتب في هذا اللون وأجاد وذلك عند مروره بحاضرة قرطبة ، و مشاهدة ما حل بها زمن الفتنة البربرية ، فوقف على أطلالها ورثاها رثاء صادقا وبكاها بكاء مؤثرا بما ذكره من حال الأسلاف الماضية والقرون الخالية والأعصار الزائلة ، وقد كانت قبل عامرة بأهلها، واليوم غدت خرابا بلقعا ، فقال في ذلك : " فإذا برسومها قائمة الأعلام، ورموزها مفهومة الكلام، ونصبها ماثلة الشكل والقيام، إلا أنها كرداح(42) مستها زمانة(43) ، وربحلة(33) أدركتها من السن مهانة، لم يبق فيها إلا رسوم من الحسن كانتشاء الطرف ..... هنا كانت قصورهم، وهنالك هي قبورهم، قد صارت مفاصلهم ترابا، ومساكنهم يبابا، وقد عادوا يسكنون القبور، وكانوا يستهجنون القصور، وظلوا يعتنقون الجلمود، وكانوا يسترهفون النهود "(45) ، ويقف عند ذكر مُلْكِ بين أمية ، وما كان من خبرهم ، فيطيل الوصف والتفجع من حال من قضى والاعتبار بمن مضى وفي كل ذلك يقول : " فقلت: أين من كان هنا من القيول الأبية، والملوك الأموية، ذوي التيجان المنظومة بالمرجان، والملابس المرقومة بالعقيان، والفرش المرفوعة إلى السكاك، والعرش الموضوعة على السماك، وقد نضدت بالنمارق، ومهدت على الأرائك، وحفت بالجنود عند القعود للسلام والأحكام، وأين أسراب تلك الجواري الكنس، في هروط السندس، كأنما ما استعارت من الكثبان أكفالا، ولا من الأغصان اعتدالا، ولا من الروض أردانا، ولا من الظباء أجفانا، ولا رنت

إحداهن عن جفن هم بالتهويم..... ؛ فوقعت معتبرا، وما أبقيت عبرة إلا أرسلتها، ولا دمعة إلا أسبلتها، بكاء على المآل، لا على الأطلال، وعلى المصار، لا على تلك الديار، وعلى فقد الأحباب، لا على ذلك الخراب"(46)، ثم يعمد إلى وصف جامع قرطبة الكبير ، فيصف إتقان صنعته واتساق هيأته وجمال قبابه وروعة محرابه وسقفه وأبوابه ، كل ذلك يصفه بأسلوب كأنك تجول في ساحته ، وتنظر من خلال صومعته ، فيقول : " ثم جئنا إلى المسجد الجامع، ونظرت من تلك المصانع، فرأيت بنيانا بديعا، وإيوانا رفيعا، شاده ذو عزم وتأييد، وبناه أولو قوة وأولو بأس شديد، فكأنما أرسته عاد، أو بنته ملائكة غلاظ شداد. مشينا من رتبة إلى رتبة، ومن قبة إلى قبة، حتى انتهينا إلى المقصورة فألفينا سقفا من فضة ..... ، فكأن قبابها قد عقدت بالجفون الدعج، والحواجب البلج، وكأن درجات منبرها تكاسير الشعور، مالت على متون الحور"(47) ، وبعد هذا السرد والوصف لمعالم مدينة قرطبة وآثار من كانت بهم عامرة يصل إلى ختام تلك المشاهد واصفا حاله ومن معه وقت رحيلهم عنها بأسلوب تفجعي، فيقول : " ثم خرجنا وقد صدئت نفوسنا، ووجلت قلوبنا، وخلت من الدمع عيوننا، ولم يتسع يوم الإقامة، لأكثر من هذه المقامة "(48).

المطلب الثاني ـ القيمة التأريخية لرسائل لطي المراحل :

لا شك أن أدب الرحلة – على مر العصور – له قيمة تأريخية في باب التوثيق والتراجم؛ ذلك أن الرحالة لا يترك شاردة ولا واردة إلا ويضمنها دفاتره وقراطيسه، فهي بمثابة ثبتٍ وسجلٍّ يرجع إليه الباحث ويستقي منه معلوماته عند التعرض لذكر الحوادث والمدن وحتى الأشخاص.

وأول ما نجده من الوقائع التي يؤرخ لها ابن مسلم ما كان من خبر علي بن مجاهد مع ابن هود ، ذلك أن هذا الأخير عزم على غزو دانية لما ساءت الحال بيمهما ، فكان ابن مسلم شاهدا على ذلك ، وقد كان ابن مجاهد خاطب أنصاره لنجدته ولكنهم قلبوا له ظهر المجن وتركوه وحيدا فأرغم على تسليم القصر دون أية مقاومة ، فدخل ابن هود المدينة عنوة ، وساق ابن مجاهد معه إلى سرقسطة وألزمه البقاء بها حتى حان أجله (49)، فيصف ابن مسلم ذلك بقوله : " فدعا إقبال الدولة إخوانه لانجاده، ونادى حلفاءه لإمداده، فاستغشوا بأردانهم، وجعلوا أصابعهم في آذانهم، وعوضوا من عونه في إصلاح ذات البين، والحصن في أثناء ذلك قد اشتد وثاقـه، وضاق خناقه، حتـــى أيقن أهله بالهلكـــــة " (50) ، وقد يأخذ ابن مسلم سمتا آخر في باب التأريخ حينما يعرض لشيء من الحياة الاجتماعية لا سيما حياة الترف والانهماك في الملذات والشهوات ، وهذه

المشاهد كانت سجلات ووثائق حية على نمط الحياة الذي كان سائدا في بعض البلاد التي زارها والحواضر التي سكنها ، من ذلك ذكره لمجلس خلاعة ومجون ، قد ذهبت فيه المروؤة بين قرع القداح وشرب الراح ، ورقص القيان وعزف الأوتار، وفيه يقول : " وأوحي إلى المزمار أن ينطق، وإلى الأوتار أن تخفق، وإلى الغناء أن يذوب القلوب، ويشق الجيوب، ويحث الشمول، ويكفي الساقي أن يقول، وقد أسبلت على بهو السماع وقبة الغناء قطعة من الخسروان اللازوردية، قد ألهب بالذهب نحورها وحواشيها، وقرنت بالعسجد أسافلها وأعاليها، وكحلت بأسلاك الجوهر خطوطها ورسومها، ووصلت بالياقوت الأحمر دوائرها ورقومها "(51).

أضف إلى ما ذكر أن أدب الرحلة ربما أسفر عن أدب موازٍ، وبيان ذلك أن الأديب كثيرا ما يعمد إلى كتابة رسالة في قالب أخرى، وذلك في معرض حديثه عن وجهته، أو لأجل إخبار صديق له بحاله، أو غير ذلك من الدوافع. وهذا اللون كان لابن مسلم منه سهم ، لما ذكره من مخاطبة ثلاثة كتاب ، اثنان منهما يعدان في ألمع كتاب الأندلس ، وهو بإيراد هذه الرسائل ينتزع اعتراف أهل النقد كونه من طبقة هذين الكاتبين كما هو باد من أسلوبه وخطابه ، ثم إن هذه الرسائل تعد وثائق تأريخية للحقبة الزمنية التي عاش فيها ، ومن هذه الرسائل ما خاطب به ابن زيدون مخبرا عن حاله زمن بقائه بحاضرة إشبيلية في كنف المعتضد بن عباد ، وما لقيه من متاعب ومشاق زمن حله وترحاله ، فيعقد موازنة بين الحالين ، فيقول : " وكتبت إلى الوزير أبي الوليد بن زيدون برقعة أقول فيها: لم أزل منذ فارقت الشرق، وتخلفت ذلك الأفق، أتقلب بين ثلج يكفن، ووحل يدفن، وريح تبعث من في القبور، ورعد ينفخ في صور النشور، وبرق يرمق أصحاب الجحيم، ويريهم صورة العذاب الأليم، إلى أن وصلت محل العليا، ومنتهى سدرة الدنيا، حضرة المعتضد بالله .... وكنت أسمع أنباءه فأستغرب، وأنزع تلقاءه فأستدني واستقرب، حتى رأيت عيانا، واستوضحت بيانا، فاذا الخبر أزرى بالخبر، والعيان أربى على الأثر"(52) فهذه جملة من الرسائل التي تظهر من خلالها القيمة التأرخية لرحلة ابن مسلم التي قضاها بين الحواضر الأندلسية.

المبحث الثالث ـ الصنعة الفنية والأسلوبية لطي المراحل:

تبدو القيمة الأسلوبية والصنعة الفنية لرسائل طي المراحل من خلال عديد من الصور الفنية والأساليب البيانية التي أنتجها خيال ابن مسلم معتمدا في ذلك على مقومات كان لها بالغ الأثر في رفد أسلوبه، وهذه المقومات مصدرها التأثر والاقتباس من نصوص

الوحيين كتاب الله وسنة نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم- ثم تضمين شيء من أشعار العرب وأمثالها التي وجد فيها الكاتب معينا لا ينضب يستقي منه الكثير من التشبيهات الرائقة والمعاني الغزيرة والأساليب الجزلة.

المطلب الأول ـ الاقتباس من مصادر الشريعة وأثره في أسلوب الكاتب:

يلجأ الكاتب في كثير من كلامه إلى اقتباس شيء من كلام الله ، أو قول نبيه صلى الله عليه وسلم بما يخدم الفكرة التي يعالجها والغرض الذي ينشده وهو يخط تلك الرسائل ، وما ذاك إلا لما في كلام الله من فصل الخطاب ومحكم التعبير ودقيق التصوير ، ثم ما في السنة النبوية من بلاغة وبيان ، فابن الأثير ، وهو يقرر مبدأ الكتابة وما ينبغي للكاتب يرى" أن لا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم والأخبار النبوية، فإنها معدن الفصاحة والبلاغة "(53) ،وقد تعددت صور اقتباس ابن مسلم لمعاني كتاب الله ، فمرة يذكر الآية كاملة حينما يود تأكيد معنى أو فكرة فيورد شيئا من كلام الله تعالى مصداقا لما ذكره على سبيل الاستشهاد مع التصريح بأن الكلام اللاحق من كلام الله تعالى ، ومن أمثلة ذلك قوله : " وحسبنا أن يكون من أصحاب المشئمة، فتواصينا بالصبر والمرحمة، وتذكرنا قوله تعالى:﴿ **وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ**﴾ }(54)"(55) ، وفي موضع آخر يتحدث عن مصحف عثمان رضي الله عنه حين مروره بجامع قرطبة زمن الفتنة ، وقد حل بها ما حل ، ولكن المصحف بقي على حاله ، وقد ألمح إلى أنه لم يكن عليه نقط ولا إعجام ، فهو محفوظ بأمر الله تعالى ، فيقول : " وجيء بمصحف عثمان ذي النورين، يحمل على المفرق واليدين، فلما خلعت مطارفه، وفتحت صحائفه .... فلذلك لم يحتج بيانه إلى ضبط ونقط، ولا افتقر قرآنه إلى أكثر من ورق وخط، جرى فيه كاتبه على سجية لسانه فأمن اللحن، وأخذ بسنة أهل زمانه فترك العجم والشكل، وأمر بقول رب العالمين {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}(56) فألصقته بكدي ليبرد ذلك الأوار"(57) .

وأما عن السنة النبوية والاقتباس منها ، فأكثر ما يكون عند ابن مسلم أن يجتزأ شطرا من حديث أو يأخذ معناه دون لفظه تبعا للقضية المطروحة أو الفكرة التي يريد إيصالها ، فهو عند حديثه عن مشاق السفر يورد جزأ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فيقول : " ولعلك - أيها الفاضل - ممن يظن هذه الأسفار فرجة، ويخال لها بهجة، وكيف والسفر قطعة من العذاب والمسافر ومتاعه على فلت الذهاب "(58) ، فالكاتب في هذا الموضع يقتبس شطرا من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه : " السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا

قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ "(59) ، ويقتبس معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه : "أُعْطِيتُ خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ... "(60) ، وذلك في معرض حديثه عن أحد قادة المعارك بين بعض الخصوم وفي ذلك يقول : " أقام للزحف أعلامه، وجعل أمامه، فنصر بالرعب، وفر عدوه قبل الحرب "(61) ، وبالطريقة نفسها يقتبس معنى من حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن أحوال العبد في أول منازل الآخرة ، وضغطة القبر(62) ، وابن مسلم - في ذلك - يشير إلى ما عاينه من أهوال ومحن جراء سيول كادت تدفنهم أحياء، فيقول : " ولولا أن الله لقننا الحجة، وأوضح لنا المحجة، وأعاننا على الخصمين، وعلمنا التخلص من النكيرين، لضغطنا ضغطة القبر، ونالتنا معرة الفقر؛ ثم إننا أخذنا في الهرب، وأخذت السيول والأمطار في الطلب، فتارة نقع من الوعر في شرك، وأخرى نهفو من الوحل في درك "(63) .

المطلب الثاني ـ التضمين وأثره في الصنعة والتصوير:

وأما عن تضمين الأشعار وأمثال العرب وأيامها، فهذا جانب آخر من التأثر والاتكاء كان الكاتب الأندلسي يعول عليه كغيره من الكتاب، في باب الكتابة لا سيما أن طبيعة عمل كثير منهم كانت تفرض على الكاتب أن يكون له مخزون وإرث أدبي من أشعار العرب وحكمها وأمثالها؛ لما في ذلك من تقوية لأساليبهم وتزيين لكتاباتهم ، وقد يغني بيت من الشعر عن رسالة بطولها ، لما فيه من بلاغة وحسن جواب ودقة تصوير. ولابن مسلم في تضمين رسائله شيء من الموروث الأدبي صور وأحوال تبدو من خلال تضمين ما تسعفه به ذاكرته من بيت أو أبيات، أو مثل أو حكمة تخدم الفكرة التي ينشدها وربما حل معنى ذلك البيت أو غيره ليتمم به مضمون رسالته أو يصور حادثة أو يصف مشهدا .

ومن أمثلة تضمينه المنظوم قوله مادحا ابن عباد ذاكرا من خصاله وأفعاله جملة استعار من شعر أوس بن حجر ما يفي بغرضه قائلا : " إن رمق الأعداء فأجفان نصاله طارفة الشفار، أو وصل الأوداء فأنداد بناته آلفة الأوطار، ضالته الحكمة، وشريعته الحجة، وإن رأى حقيقة أنصف، وإن رمى بحجة أهدف : ....

الأَلْمَعِيُّ الَّذي يَظُنّ لَكَ الظَّنْ كأَن قَدْ رَأَى وقد سَمِعَا(64) "(65)

وقد يضمن ابن مسلم بيتا من الشعر من باب الشيء بالشيء يذكر، فهو عند ما يسرد ما حل به ومن معه لما تعرضتهم عاصفة ماطرة كادت تهلكم ، ووافق ذلك وصولهم إلى الحاجب أبي الفتوح ، فأكرم وفادتهم ، وأحسن إليهم ، فيذكر بذلك ما حل بأبي الفضل الميكالي(66) ومن معه في حادثة مماثلة ، فارتجل الأخير أبياتا لتوه متهللا بانقشاع المطر وذهاب الروع عنهم ، وفي ذلك يقول ابن مسلم : " فلما انقطعت ليال خمس، التفتنا الشمس التفات البكر، من خلال الستر، وصمت الماء من خريره، والهواء من صريره .... وأسرعنا بالنهوض، وما زلنا في مسلكنا نموت ونحيا، ونتقلب بين الآخرة والأولى، حتى اصطلينا بنار الحاجب سيف الدولة أبي الفتوح، فقابل بوجه طلق وخلق سمح، فلما صرنا في ذراه، وكنفتنا نعماه، أنشدنا:

فقُل للسَّماءِ أبرقي وارعُدي فإنّا رجعنا إلى المَنزِلِ (67) "(68.

وربما اجتزأ شطر بيت إذا رأى فيه كفاية وبيانا لما يصبو إليه من معنى أو تصوير، فهو عندما يذكر تقادم عهده بحاضرة المرية يستحضر شيئا من شعر المعري في هذا الباب، فيقول: " وكان عهدي بها عهد طيف الكرى، بما بين العقيق إلى الحمى "(69) ، فهذا الجزء الأخير إنما هو شطر بيت من شعر المعري الذي يقول فيه(70):

وذكرت كم بين العقيق إلى الحمى فجزعت من أمد المدى المتطاول

وبالطريقة نفسها يضمن شـــطر بيت للعلوي الكوفي فيقول : " وإني فصلت عن تلك الحضرة بعد أيام الشباب، وليال كذوائب الكعاب، سكنا منها في السواد من القلوب، وسلكنا بين المخانق والجيوب "(71) ، فقوله : بين المخانق والجيوب إنما هو شطر بيت للكوفي يقول في تمامه : لو يستطعْنَ خَبأنَني ... بين المخَانق والجيوبِ (72) ، ولم يكتف ابن مسلم بتضمين المنظوم وحله ، وإنما وجد في الحكم المأثورة والأمثال السائرة مادة ثرة يرصع بها أساليبه ويزين بها رسائله ، فهو عند ما يتحدث لصديقه أغلب ويذكر من مشاق السفر وما لقيه يستحضر مثلا يضربه الناس لمن أدمن الشيء ، ووافق أن خالفه مرة ، فكذلك حال السفر ، فهو مظنة التعب والأهوال ، ولكن قد يكون في بعض الأسفار شيء من التنفيس ، وفي ذلك يقول : " وإن اتفقت مـــع ذلك فترة تستدمن، وبدرة تستحسن، فإنما هـــي كراحة المحتضر، ودرّة المستبحر، ولا بد مع الخواطي من

ســـــهم صائب "(73) ، فقوله : لا بد مع الخواطي من سهم صائب ، هو مضرب مثل لمن كانت الإساءة هي الغالبة عليه ، ثم يكون له شيء من الإحسان(74) ، وقد يــورد المثل لأجل مدح ممدوح ، أو إشادة بفعله من ذلك إيراده قولهم : على أعراقها تجري الجياد(75) عند تعداده مناقب الحاجب سيف الدولة ، ومدح خصاله وبيان فضائله " جواد يندى في كفه الجماد، وتقدح بنبله الزناد، ويقتبس من وجهه الكوكب الوقاد، وعلى أعراقها تجري الجياد "(76) ، وعلى الجملة فهذه لمع من تركة ابن مسلم الداني ، وفصول من رسائله التي اختارها ابن بسام في ذخيرته كانت مرآة لفن من فنون الأدب العربي .

وبعد فهذا ما وسعه البحث، وما بلغه الجهد من تتبع رحلة ابن مسلم الداني، وما أودعها من فوائد، لنخلص منها إلى ذكر جملة من النتائج التي أمكن رصدها وترجيحها، نرجو أن يكون التوفيق حليفنا والسداد طريقنا.

الخاتمة:

معلوم أن لكل عمل ابتدأه الباحث خاتمة تعد خلاصة لما طرحه من تساؤلات أو فرضيات قبل الشروع في بحثه، وعليه فقد أسفر هذا البحث المتواضع حول علم من أعلام أدب الرحلة في بلاد الأندلس عن جملة من النتائج لعل أبرزها:

-عاش ابن مسلم في القرن الخامس الهجري وعاصر عددا من أمراء ملوك الطوائف، وكان من المقربين من بلاطاتهم ، فكان ذلك سببا في رحلته هذه.

- لم تذكر المصادر التي ترجمت له شيئا عن أسرته، ولا تاريخ ولادته وتعليمه، وغير ذلك من متعلقات حياتها وأطوارها، غير ما ذكره ابن بسام، ولعل السبب في ذلك – كما أشرنا في موضع ترجمته – راجع إلى الحالة السياسة في ذلك الوقت؛ كون الكثير من مصادر التراجم وكتب التأريخ ضاعت واندثرت، بسبب تلك الفتن والصراعات المر الذي أدى إلى ضياع كثير من التراجم والمعلومات.

- يعد ابن مسلم في الطبقة المتقدمة لكتاب الأندلس في باب الترسل والإنشاء، يشهد لذلك تلك العلاقة التي كانت بينه وأشهر كتاب الأندلس وأدبائه أمثال ابن زيدون وابن عبد البر.

- يمكن القول إن ابن مسلم سابق لباب الكتابة في أدب الرحلة، وإن لم يرد ذكره عند المهتمين بهذا اللون الكتابي؛ لتلك الأسباب التي ترجحت لدى الباحث عند الحديث

- أمضى ابن مسلم في رحلته هذا ما يقرب من تسعة وعشرين سنة أو يزيد، يطوف البلاد الأندلسية، ويختلف إلى أمرائها وملوكها زمن ملوك الطوائف، يسجل ما أمكن من الصور الحياتية لأبناء المجتمع الأندلسي، ويدون ما فيه من أحداث ومجريات.

- تندرج رحلة ابن مسلم تحت باب السفارة الداخلية، وإن كان في بعض الأحايين ينزع بها نزعة شخصية، لما وجد من أدلة كونه كان سفيرا لصاحب دانية علي بن مجاهد إلى أمراء الطوائف يطلب نجدتهم، لما أحس الأخير بنية المقتدر بن هود في الاستيلاء على ملكه وتقويض دولته.

- استطاع ابن مسلم – من خلال رحله – تقديم عديد من الأنماط الحياتية والمظاهر المجتمعية لطائفة من أبناء المجتمع الأندلسي في الحقبة المؤرخة، كما هو الحال عند تصويره لمظهر من حياة الترف والركون إلى الدنيا لاسيما زمن إقامته بحاضرة المرية.

- طرق ابن مسلم عديدا من أغراض الكتابة التقليدية في رحلته، وتنوعت أغراض رسائله، وتعددت موضوعاتها، كالوصف والقصص، والمدح والثناء، ورثاء المدن والممالك الزائلة.

- يمكن القول إن ابن مسلم قد أبدع في جل ما دونه من رسائل وأغراض ،لاسيما عند ما طرقه باب رثاء الممالك الزائلة ، فوقف على أطلالها ، وقص مشاهد اندثار مجد تلك القرون البائدة والأسلاف الغابرة .

- جاءت رسائل ابن مسلم – في مجملها – متشحة بصبغة بيانية ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور إحسان عباس إشارة عابرة ، وهو يعدد الأنماط الكتابية التي عرفها كتاب الأندلس آنذاك ، ومع تقديرنا لرأيه ، إلا أنه يمكن القول إنه لم يكن لينسحب على عموم رسائله؛ ولعل السبب في ذلك راجع إلى كون الدكتور عباس لم يطالع كل رسائله ؛ فهو يعدد نمطا كتابيا، ولونا أدبيا ، ولم يكن دارسا لهذه الرسائل دراسة مستفيضة ؛ بدليل أننا وقفنا على جملة من مظاهر الحياة لذلك المجتمع ضمن ما أثبته ابن مسلم .

- تعد رحلة ابن مسلم ورسائله سجلا تاريخيا عن حقبة سياسية بمجرياتها وتقلب أحوالها ، وما كان عليه أمراء ذلك الإقليم من تبرم وتصرم ، حتى يكون الحليف مؤيدا لحليفه وقت الظهيرة ، ثم يقلب له ظهر المجنّ زمن الغروب من يومه ذلك أو نحوه .

- هناك ميزة أسلوبية لرسائل ابن مسلم تبدو في كونها أنتجت لونا من الأدب الموازي المتمثل في تدبيج رسالة في قالب أخرى ، وفي ذلك دليل على النضج الفكري والقدرة على التصرف في أفانين القول وضروب الكتابة

الهوامـــــــش:

1) ينظر ترجمته، الأعلام، خيرالدين الزركلي ، دار العلم للملايين، ط / 15 ، 2002م ، ج / 5 ، ص : 319 .
2) ينظر ترجمته المصدر السابق ، ج / 5 ، ص / 26 .
3) ينظر ترجمته المصدر نفسه ، ج / 6 ، ص : 235.
4) علي بن بسام الشنتريني الأندلسي، أبو الحسن: أديب، من الكتّاب الوزراء. نسبته إلى شنترين . اشتهر بكتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، وهو في ثمانية مجلدات، تشتمل على 154 ترجمة مسهبة لأعيان الأدب والسياسة ممن عاصرهم أو تقدموه قليلا ، المصدر نفسه ، ج / 4 ، ص : 266.
5) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لأبي الحين علي بن بسام الشنتريني ، تحقيق : أحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ط / 1 ، 1981 ، ج/ 5 ، ص : 427
6) المصدر السابق ، ج / 5، ص: 427
7) المغرب في حلى المغرب ، لابن سعيد المغربي الأندلسي ، تحقيق : شوقي ضيف ، دار المعارف – القاهرة ، ط / 3 – 1955 ، ج / 2 ، ص: 405.
8) ينظر المصدر السابق ، ج / 5 ، ص : 437 ، 446 ، 447.
9) المصدر نفسه ، ج / 5 ، ص: 427 .
10) ابن أغلب ذكر ابن خلدون ان مجاهدا وابنه عليا جعلا أغلب على ميورقة، وكان أغلب مولى مجاهد، وكان صاحب غزو وجهاد في البحر، ثم تخلى عن ولايته أيام علي إقبال الدولة فولي الجزيرة سليمان بن مشكيان ثم بشر بن سليمان الملقب ناصر الدولة ينظر : تاريخ ابن خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون ، ضبط متنه ووضع حواشيه وفهارسه ، خليل شحاتة ، راجعه ، سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ط / 1 ، 1981 ، 4: 211 .
11) مَيُورْقَةُ: بالفتح ثم الضم، وسكون الواو والراء يلتقي فيه ساكنان، وقاف: جزيرة في شرقي الأندلس بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقة، بالنون، كانت قاعدة ملك مجاهد العامري، وينسب إلى ميورقة جماعة من أهل العلم والفقه ، ينظر : معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، درا صادر – بيروت ، ط / 2 ، 1995 ، ج / 5 ، ص : 246 وما بعدها .
12) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 428 – 429.
13) علي بن مجاهد بن يوسف العَامِري: صاحب دانية ، بالأندلس وليها بعد وفاة أبيه (سنة 436 هـ وتلقب بإقبال الدولة، واشتهر بحبه لأهل العلم. والإحسان إليهم. وكان حسن السياسة، لين العريكة ، نشبت فتنة بينه والمقتدر ابن هود سنة 468 فغلبه ابن هود وامتلك دانية، فأخرجه معه إلى سرقسطة ، فأقامه فيها إلى أن توفي . ينظر: تاريخ ابن خلدون ، ج / 4 ، ص : 211 ، الأعلام ، ج / 4 ، ص / 322 .
14) ينظر : تاريخ ابن خلدون ، ج / 4 ، ص : 211 وما بعدها ، الحلة اليسراء ، لابن الأبار البلنسي ، تحقيق : حسين مؤنس ، دار المعارف – القاهرة ، ط / 2 ، 1985 ، ج / 2 ، ص : 149 .
15) أُورِيُولَة بالضم ثم السكون، وكسر الراء، وياء مضمومة، ولام، وهاء: مدينة قديمة من أعمال الأندلس من ناحية تدمير، بساتينها متصلة ببساتين مرسية ، وفيها رخاء شامل وأسواق وضياع، وبينها وبين مرسية اثنا عشر ميلاً، ولي قضاءها أبو الوليد الباجي. ينظر : معجم البلدان ، ج / 1 ، ص : 280 ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، للحميري ، حقيق : إحسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت ، ط / 2 ، 1980 ، ص : 67 .
16) الذخيرة، ج / 5 ، ص : 430 .

17) المصدر السابق ، ج / 5 ، ص : 430 .
18) المَرِيَّةُ: مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس، وكانت هي وبجّانة بابي الشرق منها يركب التجار وفيها تحل مراكب التجار وفيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب، يضرب ماء البحر سورها، ويعمل بها الوشي والديباج فيجاد عمله، وكانت أولا تعمل بقرطبة ثم غلبت عليها المرية فلا يوجد في الأندلس من يجيد عمل الديباج إجادة أهل المرية، ودخلها الأفرنج، خذلهم الله، من البرّ والبحر سنة 542 ثم استرجعها المسلمون سنة 552، وفيها يكون ترتيب الأسطول الذي للمسلمين ومنها يخرج إلى غزو الأفرنج . ينظر : معجم البلدان ، ج / 5 ، ص : 119 .
19) هو محمد بن معن بن محمد بن صمادح، أبويحيى التجيبي الأندلسي: صاحب المريّة وبجانة والصمادحية ، من بلاد الأندلس. ولي بعد وفاة أبيه سنة (443 هـ بعهد منه، و لما تلقبت ملوك الأندلس بالألقاب السلطانية لقب نفسه (المعتصم باللَّه الواثق بفضل الله) . وكان كريما حليما ممدوح السيرة، عالما بالأدب والأخبار، شاعرا، مقربا للأدباء. وللشعراء فيه أماديح وكانت مدة حكمه إحدى وأربعين سنة . ينظر : الأعلام ، ج / 7 ، ص : 106 .
20) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 431- 432 .
21) هو باديس بن حبوس بن الصنهاجي، أبو مناد، الملقب بالمظفر: صاحب غرناطة وأعمالها.تملكها بعد وفاة أبيه سنة 428 هـ ، أراد أعمامه حجبه عن ملك أبيه ، ولكنه كان حازما مقداما ، فردهم عن ذلك ، ورد من تحالف معهم من بني عامر. ينظر : ينظر البيان المغرب في تاريخ أخبار الأندلس والمغرب ، لابن عذاري ، تحقيق : بشار عواد معروف و محمود بشار عواد ، دار الفرب الإسلامي ، تونس ، ط / 1 ، 1434ه – 2013 م ، ج / 2 ، ص : 486 – 489 ، الأعلام ، ج / 2 ، ص : 40 .
22) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 434 .
23) ينظر ، البيان المغرب ، ج / 2 ، ص : 486 – 489 .
24) إقليم ألش من كور تدمير بينه وبين أريولة خمسة عشر ميلاً، وألش مدينة في مستو من الأرض يشقها خليج يأتيها من نهرها يدخل من تحت السور ويجري في جهاتها ويشق أسواقها وطرقاتها، . ومن ألش إلى لقنت خمسة عشر ميلاً أيضاً . ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص : 30 .
25) ينظر : الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 438 .
26) مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ومن الأميال ثمانون، وهي مدينة قديمة أزلية يذكر ويقال إن الذي بناها يوليش القيصر وإنه أول من تسمى قيصر، وكان سبب بنيانه إياها أنه لما دخل الأندلس ووصل إلى مكانها أعجبه كرم ساحته وطيب أرضه وجبله المعروف بالشرف، فردم على النهر الأكبر مكاناً وأقام فيه المدينة وأحدق عليها بأسوار من صخر، وجعلها أم قواعد الأندلس واشتق لها اسماً من اسمه ومن اسم رومية فسماها رومية يوليش. ويقال إن اشبانية اسم خاص ببلد اشبيلية الذي كان ينزله اشبان بن طيطش وباسمه سميت الأندلس اشبانية، ولم تزل معظمة عند العجم من ذلك الوقت، وقد كان فيها رجال ولوا قيادة العجم العظمى. ينظر : الروض المعطار ، ص : 58 .
27) المعتضد بالله أبو عمرو عبَّاد بن محمد بن إسماعيل اللخمي ، ثاني ملوك بني عباد على إشبيلية في الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف. خلف المعتضد أباه أبا القاسم بن عباد، ثم خاض صراعاً مع طوائف البربر ونجح في ضم كثير من البلاد تحت حكمه ، كان حاكماً شهماً مهيباً قوياً صارماً ، . تزوج المعتضد من ابنة مجاهد العامري صاحب دانية ، توفي في حدود 461 هـ، إثرذبحة صدرية أصابته . ينظر : الأعلام ، ج / 3 ، ص : 257 – 258 .
28) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 440 .

29) المصدر السابق ، ج / 5 ، ص : 431 .
30) المصدر نفسه ، ج / 5 ، ص : 446 .
31) العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده ، لابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محيي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، ط/ 2 ، 1981 ، ج / 2 ، ص : 294 .
32) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 428-429 .
33) المصدر السابق ، ج / 5 ، ص : 430 .
34) المصدر نفسه ، ج / 5 ، ص : 532 .
35) النارنج : نبات من فصيلة الحمضيات ، من جنس أشجار البرتقال ، فارسي معرب (نَرَنْكَ) ، يرد ذكره كثيرا في أشعار الشعراء ، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد الزبيدي ، تحقيق : جماعة من المختصين ، المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب ، الكويت ، (لا – ط) ، 2001م ، مادة : (نرج) .
36) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 431 - 432
37) المصدر السابق ، ج / 5 ، ص : 438 – 439 .
38) المصدر نفسه ، ج / 5 ، ص : 437 .
39) المصدر نفسه ، ج / 5 ، ص : 447 – 448 .
40) المصدر نفسه ، ج / 5 ، ص : 439 – 440 .
41) المصدر نفسه ، ج / 5 ، ص : 437 .
42) الرداح : المرأة الثقيلة الأوراك ، ينظر : لسان العرب ، لابن منظور ، وضع حواشيه الياجزي وجماعة ، دار صادر بيروت ، ط / 3 ، 1414هـ ، مادة (ردح) .
43) الزمانة : العاهة أو الكسر في الجسم ، ينظر المصدر السابق ، مادة : (زمن).
44) الرِّبْحلةُ : يقال :جارية رِبْحَلةٌ، أي ضَخْمَةٌ لَحِيمة جيِّدة الخَلْق ، ينظر: المصدر نفسه ، مادة (ربحل).
45) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 441 .
46) المصدر السايق ، ج / 5 ، ص : 443 .
47) المصدر نفسه ، ج / 5 ، ص : 442 – 443 .
48) المصدر نفسه ، ج / 5 ، ص : 447 – 448 .
49) ينظر : دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبدالله عنان ، مطبعة الخانجي – القاهرة ، ط / 4 ، 1997 ، ج / 2 ، ص : 208 .
50) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 429 .
51) المصدر السابق ، ج / 5 ، ص : 434 .
52) المصدر نفسه ، ج / 5 ، ص : 446 – 447 .
53) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير
54) سورة الواقعة ، الآيتان : 09 -91 .
55) الذخيرة ، ج/ 5 ، ص : 430 .
56) سورة الحجر ، الآية : 9 .
57) المصدر السابق ، ج / 5 ، ص : 443 .
58) المصدر نفسه، ج / 5 ، ص : 428 .

59) صحيح البخاري ، لأبي عبدالله البخاري ، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير – دمشق ، ط / 5 ، 1993 ، ج / 2 ، ص : 639 ، رقم الحديث : 1710 .
60) ينظر الحديث بتمامه ، المصدر السابق ، ج / 1 ، ص : 128 ، حديث رقم : 328 .
61) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 429 .
62) أشار إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً، لَوْ كَانَ أَحَدٌ نَاجِيًا مِنْهَا، نَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ " ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآحرون ، م}سسة الرسالة ، ط / 1 ، 2001 ، ج / 41 ، ص : 203 ، رقم الحديث : 24663 .
63) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 438 – 439 .
64) ديوان أوس بن حجر ، تحقيق : محمد يوسف نجم ، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ، (لا – ط) ، 1980 ، ص : 53 .
65) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 447 .
66) عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي، أبو الفضل: أمير، من الكتاب الشعراء. من أهل خراسان. صنف الثعالبي " ثمار القلوب " لخزانته. وأورد في " يتيمة الدهر " محاسن من نثره ونظمه، ومختارات من كتابه " المخزون " المستخرج من رسائله. وسماه صاحب فوات الوفيات " عبد الرحمن بن أحمد " وأورد من شعره ، وذكر له من المؤلفات " مخزون البلاغة " و " ملح الخواطر ومنح الجواهر " و " ديوان رسائله " و " ديوان شعره " ، ينظر : الأعلام ، ج / 4 ، ص : 191 .
67) ينظر : زهر الآداب وثمر الألباب ، للحصري القيرواني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، شرح وضبط : زكي مبارك ، دار الجيل ، بيروت- لبنان ، ط / 4 ، (لا – ت) ، ج / 1 ، ص : 239 وما بعدها ، فيها ذكر الحادثة بتمامها .
68) الذخيرة ، / 5 ، ص : 439 .
69) المصدر السابق ، ج / 5 ، ص : 430 – 431 .
70) معجم الأدباء ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ياقوت الحموي ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط / 1 ، 1993 ، ج / 2 ، ص : 577 .
71) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 435 .
72) حماسة الخالديين ، أبوبكر محمد بن هاشم الخاليدي ، أبوعثمان سعيد بن هاشم الخالدي ، تحقيق : محمد علي دقة ، وزارة الثقافة ، الجمهورية العربية السورية ، (لا- ط) ، 1995 ، ص : 93 .
73) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 438 .
74) ينظر : الأمثال ، لأبي عبيدة القاسم بن سلام الهروي البغدادي ، تحقيق : عبدالمجيد قطامش ، دار المأمون للتراث ، ط / 1 ، 1980 ، ص : 50 .
75) مثل يضرب للشخص إذا كان على سنن سلفه، يُقَالُ: جَرَى فُلان عَلَى أَعْرَاق آبائِه إِذَا أَشْبَهَهُمْ فِي كَرَمٍ أَوْ غَيْرِه ، نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد ، إبراهيم بن ناصف الياجزي ، دار المعارف مصر ، 1905 ، ج / 1 ، ص / 306 .
76) الذخيرة ، ج / 5 ، ص : 437